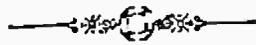


حتى اذا تمكنت العادات وحارت طباعاً مروثة تعذر نزعها الا بشق الانفس  
اذا كان الطباع طباع سوء فليس بتافع ادب الاديب



## مصير التمدن

ترجمة بايجاز عن كتاب هنري جورج الكاتب الاميركي الشهير بقلم نسيم افندي برباري

لا عجب اذا افتخر ابناؤه القرن التاسع عشر على المتقدمين بعد ان اوتوا من العلم  
والاختراع ما لم يحلم به سلفاؤهم وسيا تمدينهم على كل تمدن قبله . واول ما يخطر على بال  
الباحث بعد ان تذهب سؤرة خمر الافتخار من رأسه هو هل يبقى تمدننا هذا الى ما شاء  
الله او يرجع التمدنون القهقري فتخزو جيوش المتوحشين اوربا وتغفو معالمها فتندرس  
آثارها ويبتدى تمدن آخر يرى اهله انفسهم ارقى مما كما نرى انفسنا ارقى من اسلافنا  
وقد يظن المرء لاول وهلة ان هذا مستحيل من جميع الوجوه وان العالم سائر سيراً  
حينئذ في سبيل الارتقاء وسيدوم كذلك الى ما شاء الله . ولا يبعد ان الروماني الذي  
شاهد عظمة رومية وسمع بانتصار جيوشها ورأى القياصرة تدخلها باحتفال عظيم وقد  
شد اسرى الملوك الى مركباتهم كان يرى في تمدنه ما نراه نحن في تمدننا بل ربما تطرف  
الى اكثر من ذلك لجهله ان في شجرة التمدن دودة نخرها وقد نخرت شجرة التمدن  
القديم قروناً عديدة والناس عنها لاهون حتى اذا عصفت بها ريح زعزع لم تقو على صدها .  
اما فنحن فنعلم كيفية سير الداء الذي طرأ على التمدن الحديث وقد قام الناس لمداواته  
فاذا لم يفلحوا عدنا الى ما كنا عليه منذ الف عام وذويت اعمال القرن التاسع عشر  
ادراج الرياح

واول ما يجب اليخ عنه هو اسباب هذا التمدن واحكامه . والمعتمد عليه عند  
الجمهور هو ما قرره الفيلسوف هربرت سبنسر وغيره من ان قوى الناس قد ارتقت  
بفعل الانتخاب الطبيعي وناموس الوراثة كما ارتقت انواع الحيوان في مذهب النشوء  
والارتقاء او بعبارة اخرى انه كلما اشتد التنارع للبقاء اضطر الانسان الى الاختراع  
والاستنباط لاصلاح حاله وبقاء نوعه . وهذا الاصلاح وقوة الحصول عليه يرثها الفرد  
او الشعب الذي هو اصح من غيره للبقاء . وعلى هذا المذهب يكون البقاء قد حُصن

باقوام دون غيرهم وتكون الحروب والابوثة والمجاعات اسباباً لارتقاء القوي وانقراض الضعيف . ويقول اصحاب هذا المذهب ايضاً ان التمدن يفوق المتوحش بكل ما تعلمه سلفاؤه منذ اول ارتقائهم في سلم المدنية وان نتيجة ما حصلوه في القرون التي سلفت تامة في جوهر دماغه فاصبحت ملكة الارتقاء غريزية في التمدنين وستمكثهم من عمل العجائب . وعندني ان هذا المذهب فاسد لانه لا ينطبق على احوال الامم ولا يمكننا ان نكمل به كل ما طرأ عليها . مثال ذلك ان الهند والصين بلغتا درجة سامية من التمدن عند ما كان الاوربيون يهيون في فيافي الجهل ثم وقفنا على حال واحدة ولا تزال كذلك . ومثلها مصر التي بلغت شأنها لم يبلغه غيرها من الممالك القديمة ثم رجعت القهقري حتى نسي المصريون آثار اجدادهم وزعموا انها من اعمال الجن والفقاريت . فلو كان الارتقاء نتيجة سنة طبيعية ثابتة لبقى اولئك الشعوب في ارتقاء مستديم والله اعلم بما كان قد بلغ اليه حال العالم الآن

ومن المسلم به ان الاساس الذي بني عليه تمدننا اوسع وامتن من اساس كل تمدن سواه وان مسيرنا فيه اسرع ولكن ما كان هذا ليجمهله اخذ من تمدن الرومان واليونان الذي فاق تمدن شعوب اسيا بمقدار ما يفوقه تمدننا . واذا لم تقو على مقاومة الداء الذي اعتدى تمدن الشعوب السالفة فتمدنتنا سائر الى الاضمحلال مثل تمدنها لا محالة فتصح نبوءة ما كولي الكاتب الانكليزي الشهير الذي قال في احد كتبه ان اهالي زيلاندا الجديدة سيأتون يوماً ويقفون على خرائب جسر لندن ويراجمون التواريخ ليعرفوا من بناه وقبل البحث عن ناموس ارتقاء الشعوب يجب ان نوضح اسباب الاختلاف في تمدنها . فقد زعم كثيرون ان لكل شعب مزية فطرية تميزه عن سواه وهي علة ما يرى بين الشعوب في الاختلاف في التمدن

ولامراء ان هذا التعليل بعيد عن الصواب ولو كان فيه بعض الصدق من جهة وجود مزايا يتوارثها افراد الشعب الواحد غير ان تأثيرها لا يذكر بالنسبة الى تأثير الاحوال والعوامل التي تطرأ على الانسان بعد ولادته . فقد أكد الباحثون ان اولاد التمدنين الذين سرقهم هنود اميركا قد شبوا على عادات الذين حولهم كأنهم ولدوا فيها . ولو ربي اولاد الزوج كما يربي اولاد البيض تماماً لوصلنا الى هذه النتيجة نفسها . فقد قال معلو اولاد الزوج انهم يفوقون اولاد البيض فجابة الى عمر معلوم ثم يتأخرون عنهم بعده وقد علل ذلك الاسقف هابري الزنجي بانه اذا رأى اولاد الزوج ان اولاد

البيض ينظرون اليهم شزراً ويقولون انهم لا يصلحون الا ليكونوا خدماً ضعت همهم  
وتقاعدوا عن الجهد والسعي ولا سيما لانه ليس لوالديهم مطامع عالية او آمال رفيعة .  
وهذا الفرق ظاهر جلياً بين اولاد النقره والاغنياء من البيض فانهم يتساوون معاً في  
الدروس الابتدائية ثم اذا تقدموا الى العلوم العاليه فاز منهم الاغنياء الذين توفرت لهم  
وسائط التقدم كافتناء الكتب ومداشره العلماء والمضور في النوادي العلميه

وقد اورد البعض شواهد عديدة على ان الاشقياء المشهورين ورثوا الشقاوة عن  
والديهم ومعلوم ان المسئول يعود ولده المسئول وعشير الاشرار شريرة بالطبع  
سواء كان من صلبيهم او كان ابن افضل والديه

وخلاصة ما تقدم ان اختلاف الشعوب ليس ناتجاً عن غريزة في طبيعة الشعب بل  
عماً حاكمه ذلك الشعب لنفسه من الشرائع والقوانين والعوائد فاذا ولد ولد غريب في  
بلاد وامتزج باهلها فخلق باخلاقهم ولم يبق فيه شيء من اخلاق اسلافه المخالفة لما  
يتضح مما تقدم ان ناموس الارتقاء المشار اليه آنفاً ناقص من وجوه عديدة اذ لا  
يمكننا ان نعالق به الاختلاف العظيم بين الشعوب المختلفة التي نشأت اصلاً في وقت واحد  
وكانت قواها العقلية واحدة . ولا وقوف تمدن بعض الشعوب على حال واحدة مدة  
قرون عديدة وتقهقر البعض الآخر . ولا نوع الاختلاف بين التمدن الاوربي والاسيوي  
والتمدن القديم والحديث . فاذا كان للارتقاء ناموس وجب ان يتأصل به كل ما تقدم ويؤمل  
به ايضاً ما يحدث احياناً من وقوف التمدن بفتة او نموه بفتة وتعلم متد الاسباب التي  
تأول الى ترقى التمدن وتأخره

والانسان يسير في سبيل التمدن مدفوعاً بعوامل غريزية فينوي سد عوز جسده  
وعقله وعواطفه ولذلك يعمل طعاماً بالبقاء ورغبة في زيادة المعرفة وحياً بالعمل وهذه  
الاميل لا نتعب بل تزيد كلما اجتهد في اتمام مطالبها

والعقل هو الواسطة التي بها يسعى الانسان في ادراك هذه المطالب . ولما كانت الحياة  
قصيرة استحبال على الفرد الواحد ان يعمل شيئاً كثيراً اكن كل فرد يرث ما عمله سلفه  
ويزيد عليه وبذلك يرتقي التمدن تدريجياً

وتقدم الشعب هو بنسبة القوة العقلية التي يبذلها افراده في تحسين احوالهم الاجتماعية  
فاذا بذلوا قواهم العقلية كلها في طلب المعيشة ساءت احوال الشعب وانحطت الى درجة  
سفلى . ويظهر هذا الامر جلياً في حياة الافراد . فالعامل الذي يضطر ان يعمل نهائياً وليلاً

لتحصيل بُلغة من العيش يتمدّر عليه تأليف الكتب واختراع الآلات لان انهماكهُ في طلب القوت لا يبقِي له فرصة لعمل آخر

ويقولُ الثمب في طلب المعيشة متى سكن الناس معاً وتقسمت الاعمال بينهم اي متى سادت الحضارة فينفرغ العقل اذ ذلك للبحث في العلوم والفنون ويشيد صرح التمدن ولذلك فسيادة الحضارة هي الشرط الاول لبقاء التمدن . والشرط الثاني هو وجود العدل والحريّة اذ بدونها يضطرّ الانسان الى حرب دائمة ليأمن على نفسه وماله فيشتغل بها عن اصلاح حاله

هذا هو ناموس التمدن وهو كافٍ لتعليل ما نراه من قيام الممالك وسقوطها . فكما اجتمع الناس معاً وتعاونوا على اعمال الحياة ارتقوا وساروا في سبيل التمدن ثم اذا تطرق الى احكامهم الجور وعدم المساواة عاد ذلك التقدم نقهراً

وتتوقف سرعة التمدن على العقبات التي في طريقه وهي إما خارجيّة او داخلية والاولى منها تظهر على اشدها في بداءة التمدن والثانية عند بلوغه اتمه . وبديهي ان اختلاف البلدان والاقالم في ارتفاعها وانخفاضها وسهولتها ووعورتها وحرها وبردها يدعو الى اختلاف في تمدن سكانها فالسهول الخصيبة كوادى الترات ووادي النيل حيث الهواء معتدل والمهيشة ميسورة كانت مهد الحضارة والتمدن وذلك لان سكانها لم يضطروا ان يصرفوا قواهم كلها في طلب المعيشة اما البلاد الجبلية الفاحلة الباردة فقد سار فيها التمدن سيراً بطيئاً جداً في اول الامر وسبب ذلك ان الجبال العالية والانهر الواسعة السريعة الجري وتجوها من الصعوبات الطبيعية تمنع الناس عن التهرب بعضهم من بعض فيسود الاختلاف عليهم وتنتشب الحروب وتعدد القبائل ويكون لكل منها لغة وعوائد وتقاليد مختلفة وتبقى على هذه الحال حتى تنسلط عليها امة غريبة فتجملها كلها معاً وتبطل الحروب من بينها فيتنفرغ افرادها لما هو خير لهم وابقى

وليست التوححات الخارجيّة بالمعامل الوحيد في جمع القبائل المنفرقة بل ان اختلاف وجه الارض الذي يكون في الاول سبباً لابتعاد الناس بعضهم عن بعض يحجى التجارة بينهم اخيراً والتجارة تضمن السلم طويلاً لان الحرب معطلة لها

وكفى بالتاريخ شاهداً على ما تقدم . فتوحات الرومان جمعت قبائل اوربا المتوحشة معاً ونظمتها في سلك التمدن . ثم لما هاجمهم جيوش البربر تفرقوا ايدي سبا وعادوا الى الخشونة الاولى حتى قبض الله لهم ملك الاشراف فاجتمعت هذه القبائل في اقسام

كبيرة تجميها معا وحدة الديانة . ثم اتسمت هذه الاقسام حتى صارت ممالك كبيرة وهي ممالك اوربا الحاضرة فثما فيها عرس التمدن وانبغ وصار العالم الى ما هو عليه قانا سابقا ان الفاعل العظيم في ترقية الناس هو القوى العقلية التي تمكّنها الحضارة والعدالة من التفرغ لما هو ارفع وابقى . ولا يخفى انه كلما ارتقى الناس كثر التعقيد في قوانينهم وزاد اعتماد افرادهم بعضهم على بعض بتقسيم الاعمال بينهم فبعد ما يكونون كالحيوانات الدنيا التي اذا قطع عضو منها عاشت بعده وعاش هو مستقلا عنها يصيرون كالحيوانات العليا التي لكل عضو من اعضائها وظيفة خاصة به ولا يمكن الجسم ان يعيش بدونه

وتقسيم الاعمال وارتقاء العمران يدعون الى عدم المساواة . ولا نريد بذلك ان عدم المساواة هو نتيجة العمران بل ان العمران يؤدي اليه ان لم نتخذ له التدابير اللازمة من وقت الى آخر وبعبارة اخرى ان ثوب العوائد والقوانين والنظامات التي يحكمها الشعب في ارتقائه سلم المدنية يضيق على لابسها اذا نما فتدعو الحال الى توسيعه من وقت الى آخر او ان الانسان يسير في طريق كثيرة التعاريج وهو يتقدم في الحضارة فاذا لم يتخذ العقل نبراسا خيف عليه من الضلال

ولا يخفى على من راقب طبائع الناس ان في الانسان خلتين ظاهرتين اتم الظهور . الاولى قوة العادة او قوة الاستمرار ونتيجتها ان الانسان يستمر احيانا على اتباع بعض العوائد والاحكام ولو لم يبق لها داع لزال السبب الذي وضعت له والثانية إمكان التعمق ادبياً وعقلياً ونتيجة ذلك ان الناس قد يتصورن آراء واحكاما لو تأملوا فيها لفترت طبيعتهم منها . ويظهر لمن ينعم نظرة في العمران انه يربط الناس بعضهم ببعض حتى يضطروكل واحد منهم ان يعتمد على غيره كما يعتمد على نفسه لانه لا يعود قادراً ان يعمل وحده كل الاعمال اللازمة لمعيشته وراحته وانه يتولد من مجموع افراد الشعب قوة عامة تتنازع عن قوة افرادها كما ان قوة الحيوان كله تتنازع عن قوة كل عضو من اعضائه . فاذا تقدم الشعب ونظرت منه هذه القوة الحاصلة من اجتماعه مال من نفسه الى حصرها في فريق منه فينحصر الغنى والجاه في ذلك الفريق ويزيد الفرق بين طوائف ذلك الشعب لان استعمال الغنى يزيد الاغنياء ثروة واستعمال الجاه يزيد الظالمين ظلماً

وعلى هذا الاسلوب استجمالت رئاسة العائلة الى ملك وراثي . وذلك ان اب العائلة يكون رئيساً لها فاذا مات خلفه ابنة الاكبر لانه اكثر اخباراً من غيره ولكن اذا دام

هذا الترتيب فن مقتضاهُ انحصار الرئاسة في بيت واحد من بيوت القبيلة التي تولدت من تلك العائلة . وتزيد قوة ذلك البيت بل قوة رئيسه بنمو القبيلة واتساع نطاقها وازدياد قوتها الى ان يصير ذلك الرئيس ملكاً فينظر الى نفسه وينظر اليه شعبه كأنه من جيلة غير جيلتهم وله حقوق فوق حقوقهم فتزيد قوته على عقاب المسيء واثابة المحسن فيتزلف اليه شعبه ويتماقونهُ طمعاً بثوابه وخوفاً من عقابه فاذا لم يحدث حادث يصلح هذا الخلل صار الشعب عبيداً لملكهم وقضى مئة الف منهم عمرهم كله في بناء مدفن له كما فعل المصريون لما بنوا الهرم الاكبر لملكهم وهو انسان مثلهم وعلى هذا الاسلوب او ما يماثله يستقل بعض الناس بادارة الاحكام والسلطة السياسية والدينية ان لم يقم من الشعب ما يزيل هذا الاستقلال ويمنع ضرره ويعيد الى الناس المساواة واعظم سبب لنزع المساواة من بين الناس هو امتلاك الارض . ويرى المرء لاول وهلة ان الارض يجب ان تكون مشاعة لمن يستخدمها وينتفع بها وهذا هو حال الامم التي لاتزال على الفطرة الاصلية . الا انهم لا يلبثون طويلاً حتى يتندعوا حق التملك ويكون هذا الحق مصوراً بادىء بدء بما يتجه الانسان من الارض ثم يطلق على الارض نفسها فاذا كانت واسعة والشعب قليل العدد لم يظهر ضرر امتلاكها فيه . واما اذا نما وكثر عدده آل حتى التملك هذا الى جعل المال اجزاء في الارض وحصر ريعها بهلاكها فنزول المساواة وتكثر الفاقة وتنداعى اركان العمران كما سيبيح في الجزء التالي

## النيلوفر

كيفاً قلبت الطرف في الآثار المصرية القديمة سواء كانت نقوشاً ورموزاً او عمدًا وهياكل او صوراً وتماثيل ترى لزهو النيلوفر (البشيين) المقام الاول بين الازهار والرياحين . تراه قلادة في جسد الغادة الحسناء والكيللا على رأس البطل الباسل وطاقة في يد الضيف الكريم . وهو تاج الاعمدة ومقبض العصي وصداخ السفن وزينة المحافل والولائم ولا تخلو منه مائدة ولا مقدمة ولا زينة واقصد صدق من سماه ورد المصريين القدماء . واما اذا اطالعت الصحف المصرية الحديثة صحيفة صحيفة وقرأت ما يطبع في هذه الديار وينشر فيها من الكتب العلمية والادبية والفكاهية فلا تكاد تعثر فيها على كلمة النيلوفر مرة واحدة . وهذا من الغرابة بمكان . فان الزهر الذي كان له رمز ديني وادبي وسياسي